

المحاضرة الثالثة

إشكالية التراث لدى تيار الحداثة (طه حسين، سلامة موسى، زكي نجيب محمود)

يقصد بتيار الحداثة الفكر الذي زرع الاتصال بالغرب ثقته في ذاته وإيمانه بثوابت أمته، فتخلى عن مرجعية النص ووطنية الدين وإسلامية النهج، واتخذ من الحضارة الغربية نموذجا كاملا للاحتذاء. وتجسد هذا الموقف في الإيمان بمرجعية العقل، وعلمانية الحكم، وحدائية الموقف الأدبي. وكان بعض رجال هذا التيار من النصارى كشبلي شميل وفرح أنطون وسلامة موسى، وبعضهم ممن قدر لهم الاتصال المباشر بالعالم الغربي كعلي عبد الرازق وطه حسين وزكي نجيب محمود، وبعضهم الآخر ممن تتلمذ على هؤلاء وعلى فلاسفة الغرب بطريق مباشر أو غير مباشر كأدونيس وجابر عصفور ونصر حامد أبوزيد. وسنقتصر على تناول رواد هذا التيار، لاسيما أشدهم ولاء للحضارة الغربية وجرأة في استشكال التراث.

ولأن الموقف من التراث الحضاري الإسلامي كان هو الوجه الآخر للموقف من الحضارة الغربية وثقافتها ومناهجها وقيمها المعرفية والذوقية، فسيكون مناسبا الانطلاق من الطرف التاريخي الثقافي الذي أنتج هذا الموقف الذي يوصف بأنه تجديدي أو حدائي؛ وهذا نص طويل لمحمد محمد حسين يلقي أضواء كافية على عوامل نشأة هذا الموقف الجديد من التراث الإسلامي:

"كان قوام الدعوة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية عدد من أصحاب الثقافة الأوروبية الذين كان يسميهم خصومهم وقتذاك بالمتفرنجين، بعضهم من الشاميين المسيحيين الذين استقروا في مصر، وبعضهم من المصريين الذين تلقوا دراستهم في أوروبا أو في المدارس الأوروبية ومدارس الأرساليات الدينية التي كان عددها في ازدياد مطّرد.

أما الشاميون فقد كانوا موزعين بين النفوذ الفرنسي والنفوذ الإنجليزي (...). أما المصريون... فقد كانوا من الذين فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة، حين عاشوا في البلاد الأوروبية، أو نشأوا في مدارسهم المنبثّة في أنحاء الشرق، واستمدوا مثلهم العليا في حياتهم من ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد. فهم يعرفون عن تاريخ إنجلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب، وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوروبية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر

مما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي، وهم يعرفون أعلام الفكر الأوربي وشعراءه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية إلا قليلا.

وهم بعد ذلك يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها الحياة الغربية، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنبية تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم. وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب، بينما فطرت الصلات الروحية والثقافية بينهم وبين الشرق والإسلام، وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقترن في أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض، وبذلك الأخلاط من حثالة الناس الذين يفترسهم الجهل والفوضى والانحلال. وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام، ويقولون إنه دين ساذج، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين، فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد.

يقول كرومر إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي. فقد وضعت قوانينه لتتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني (...).

وقد قرّر كرومر في كتابه عن عباس الثاني أن المسلم غير المتخلق بأخلاق أوربية لا يصلح لحكم مصر، كما أكد أن المستقبل الوزاري سيكون للمصريين المتربين تربية أوربية⁽¹⁾.

هذه الظروف التي أجملها محمد محمد حسين هي التي صنعت رجلا مثل طه حسين، ورفعته إلى مرتبة الوزارة كما قرر اللورد كرومر، وجعلته يعد خطة لـ "مستقبل الثقافة في مصر"⁽²⁾، ينظر فيها بعين الحب والعطف إلى أوربا، فيتمنى لو تتخلص من كل مشاكلها لتنهض نموذجا كاملا في أعين العالم، فيقول: "ينبغي أن تحل أوربا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبية وقبولا من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم، وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي، فإن العالم سيصبح مكانا في منتهى الخطورة!"⁽³⁾.

(1) محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية بين الأدب المعاصر، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 7، 1405 هـ- 1984، ص 256-262.

(2) كتاب له بهذا العنوان.

(3) الأهرام، فهمي هويدي، من يعادي من، 17 يوليو 1990، نقلا عن محمد عمارة، الإسلام بين التثوير والتزوير، ص176.

وهكذا، بينما تكون مشاكل أوروبا وأمراضها وفوضاها، وماديتها قبل ذلك، سببا في عدم صلاحها نموذجا للاحتذاء عند تيار الإصلاح، فإن تيار الحداثة يرى عكس ذلك، ينبغي على أوروبا العجوز أن تعود إلى عز الشباب، وأن تزيل عن وجهها كل مظاهر القبح لتصير أكثر جاذبية وأفتن للناظرين! ذلك أنه لم يبق في الكون مثال سواها، ولا نهج سوى نهجها: "إن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهي: أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يعاب.."(4)، وذلك أمر لازم وجبرية قاهرة لا تترك لنا فرصة للتردد أو الاختيار: "لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع..."(5).

كان هذا هو رأي طه حسين في مرحلة حماسته وانبهاره الشديد بحضارة الغرب، أما سلامة موسى فقد كان من شدة الولع بهذه الحضارة بحيث لم يكتف باتخاذها نموذجا للحاضر والمستقبل، بل راح يزعم أن لمصر وشمال إفريقيا انتماء أوربيا أصيلا كان في الماضي، وينبغي أن يستمر ولا ينقطع، وأن الانتماء إلى آسيا، أو الشرق، أو العرب، معرّة شنيعة وكارثة فادحة، يقول:

"ولست أجهل أن آسيا(6) قد حكمت مصر نحو ألف عام، وبسطت عليها حضارتها وثقافتها، بل ودست دمها في دماء أبنائها. ولكننا نحمد الأقدار أننا مازلنا في السحنة والنزعة أوربيين، إذ نحن أقرب في هيئة الوجه ونزعة الفكر إلى الإنجليزي أو الإيطالي... وكذلك الحال في سوريا وشمال إفريقيا العربي، فإن سكان هذه الأقطار أوربيون سحنة ونزعة. فلماذا إذن لا نصطنع جميعا الثقافة الحضارة الأوربيتين، ونخلع عنا ما تقمصناه من ثياب آسيا؟؟".

هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي، سرا وجهرا. فأنا كافر بالشرق مؤمن بالغرب، وفي كل ما أكتب أحاول أن أغرس في ذهن القارئ تلك النزعات التي اتسمت بها أوروبا في العصر الحديث، وأن أجعل قرائي يولون وجوههم نحو الغرب، ويتصلون من الشرق"(7).

(4) طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف، القاهرة، 1938، ص 43.

(5) المصدر السابق، ص 36.

(6) واضح أن المقصود بآسيا ليس اليابان ولا الصين، ولكنهم العرب المسلمون.

(7) سلامة موسى، اليوم والغد، ط. القاهرة، 1928، ص 5-6.

"إن الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض، ولهذا المرض مضاعفات. فنحن لا نكره الغربيين فقط، ولا نتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على وراء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب كما يفعل أدباؤنا المساكين أمثال المازني والرافعي، وندرس بن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث عن علي ومعاوية ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ، ونحاول أن نثبت أن العرب عرفوا الفنون... وكل ذلك إنما يدفعه في أنفسنا كراهتنا للغرب، وأنفتنا من جهة، واعتقادنا أننا شرقيون من جهة أخرى"⁽⁸⁾.

"إنه ليس علينا للعرب أي ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضیعة للشباب لقواهم"⁽⁹⁾، "إننا نحتاج الآن إلى ما يهيج قلوبنا، ويملؤها تفاؤلا بالحياة، ولن نجد ذلك إلا بارتباطنا بالغرب، واصطناع ما عند الغربيين من رقص وألحان وموسيقى... أما الشعر العربي، فقد سئنا قوافيه الرتيبة التي تشبه دق الطبل عند السودانيين."⁽¹⁰⁾.

ولم يكن سلامة هو وحده الذي سعى إلى انتحال المماثلة بين العربي والأوربي، فإن لطفي السيد وطه حسين شاركاه هذا الإيمان المطلق "بأن أسلوب التقدم الغربي، هو الأسلوب الوحيد في الرقي والتطور، وأن تجربة الغرب يجب أن تحتذى باعتبارها تجربة كونية، ولم يلتفت للشروط التاريخية، وجرى تجاوز الأنساق الثقافية، واختزلت العلاقة بين "الشرق القريب"، و"الغرب"، إلى عملية تجريدية ذهنية"⁽¹¹⁾، ولهذا حرص طه حسين على إثبات أصالة المزاج الأوربي والعقلية الأوربية للمصريين، فكان يصرح بأن المهمة الثقافية هي "أن نمحو من قلوب المصريين أفرادا وجماعات هذا الوهم الأثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأوربي، وفطروا على أمزجة غير الأمزجة الأوربية، ومنحوا عقولا غير العقول الأوربية"⁽¹²⁾، وكان يزعم أن الترك العثمانيين هم الذين فصلوا بين العقلين المتمثلين، وأوقفوا سير الحركة العقلية في مصر، وأن إعادة الأوضاع إلى أصولها القديمة-على حد افتراضه- هو الكفيل بتحقيق النهضة للمصريين.

وقد كان طه حسين من أكثر رموز هذا التيار عناية بالتراث الأدبي والنقدي والفكري والديني، ومساءلة له، وجرأة على كثير من أصوله وثوابته ومسلّماته وحتى مقدّساته. ويمكن أن نجمل حصيلة هذه المساءلة فيما يأتي:

(8) المصدر السابق، ص183.

(9) المصدر السابق، ص173.

(10) المصدر السابق، ص182.

(11) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص16-17.

¹² طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، ص40.

-نزع القداسة عن الكتاب المقدس والمرجع الأول للتراث الإسلامي: القرآن

الكريم

فقد دعا طه حسين إلى التعامل النقدي الحر مع الكتب المقدسة، بما فيها القرآن الكريم؛ وذلك في قوله: "كان من حق الناس جميعاً أن يقرؤوا الكتب المقدسة ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفني، فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم، ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث إنها كتب مقدسة، فلا يغض منها ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد، وبعبارة أوضح: لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم في هذه الكتب من حيث هي موضع للبحث الفني والعلمي، بقطع النظر عن مكانتها الدينية"¹³. وفي كتابه "في الشعر الجاهلي" يعلن صراحة أن القرآن الكريم، مثله مثل التوراة (ولم يذكر الإنجيل!)، ليس وثيقة علمية تاريخية يمكن البناء عليها في إثبات قضية ما؛ ففي سياق دفاعه عن اعتقاده في أسطورية قصة بناء إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) للقصة، يرفض أن يتخذ حديث القرآن عن ذلك حجة يُستند إليها، وذلك في قوله:

"للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة... ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى"¹⁴.

-أسطورة السيرة النبوية: تعدُّ السيرة النبوية أصلاً عظيماً من أصول التراث

الإسلامي؛ فهي تتضمن الأصل المرجعي الثاني بعد القرآن الكريم، وتمثل للمسلمين موضع اهتمام واهتمام؛ لذلك يحرص أهل العلم والتأريخ على التزام الدقة والأمانة في توثيقها، ويتخذونها مادةً للاسترشاد والتعلم والتربية، لا مجرد مادة تاريخية.

ولكن طه حسين لم ينظر إليها بهذا المنظور، بل اتخذها مادة للتأليف الأدبي والإنشاء الفني، وتعامل معها كما يُعامل مع الأسطورة. فهو ينبه قراءه على أنه لا يبتغي من تأليفه سوى المتعة، وأنه يسلك في تأليفه مسلك مؤلفي التمثيليات والأساطير الغربيين مثل هوميروس وموليير جيروجو، وأن العقل يرفض كثيراً من الأخبار والأحاديث التي وردت في كتابه، ولكن "في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها"¹⁵ وقد سمح لنفسه في هذا الكتاب أن يخترع من الأحداث

¹³ طه حسين، في الصيف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2013، ص11.

¹⁴ طه حسين، في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1926، ص26.

¹⁵ طه حسين، إسلاميات (على هامش السيرة)، دار الآداب، بيروت، ط1، 1967، ص176.

القصصية ما لا أصل له، وقال في ذلك: "وأحب أن يعلم الناس أيضاً أنني وسَّعت على نفسي في القصص، ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع ما لم أجد به بأساً"¹⁶

وهذا التعامل مع المصدرين الأساسيين للدين الإسلامي والتراث الإسلامي عموماً يدل على موقف من التراث لا يتسم بالتبجيل والاحترام، ولا يُشعر بإحساس الانتماء. بل ربما دل على أنه يتخذ من مواقف المستشرقين ذوي النزعة المعادية للحضارة الإسلامية مرجعاً له في طريقة تعامله معه واستشكاله له.

-الاستنقاص من رموز التراث وأعلامه في الدين والفكر والشعر: للتراث رموز وأعلام يمثلونه وينتصبون معالم هداية أو منارات إضاءة في طريق الحضارة، ومصدر اعتزاز وفخر تشد به الأجيال عزيزتها على الكفاح وهمتها في طلب المعالي، واثقة في قدرة الأمة على الإبداع والابتكار. وقد تعامل طه حسين مع كثير من رموز الأمة وأعلامها بغير ما يستحقون من التنزيه أو التنويه بما لهم من تميز وإبداع.

فقد رمى الخليفة الراشد عمر الخطاب رضي الله عنه بالعصبية¹⁷، ورمى الخليفة الراشد عثمان بن عفان بالظلم والطغيان¹⁸ والصحابي خالد بن الوليد بحب القتل وبالعجب والخيلاء¹⁹. وطعن في شرف الشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي ورماه في نسبه وأخلاقه²⁰. وقلل من شأن ابن خلدون معترضاً على عدّه مؤسساً لعلم الاجتماع، مبالغاً في التعلل بالموضوعية كما لاحظ عبد الإله بلقزيز في "نقد التراث"²¹. وفي الوقت ذاته أعلى من شأن الذين خالفوا الاتجاه العام للحضارة الإسلامية مثل الثائرين على عثمان، وأصحاب عبد الله بن سبأ، وشعراء المجون والشك.

-القول بالخصومة بين الدين والعلم: قامت الحضارة الإسلامية على الدين أساساً، وكان الاجتهاد العلمي ثمرة من ثمار الدين الإسلامي ذاته، وكان العلم – باعتراف المنصفين من مفكري الغرب أنفسهم- أعظم ما جادت به الحضارة الإسلامية على الغرب خصوصاً والبشرية عموماً؛ ولكن طه حسين لم يأبه بذلك، بل أثر أن يتخذ

¹⁶ المصدر السابق، ص177.

¹⁷ طه حسين، الأدب الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ص122.

¹⁸ طه حسين، إسلاميات (الوعد الحق)، ص654.

¹⁹ طه حسين، الشيخان، دار المعارف بمصر، ط4، ص79-80.

²⁰ ينظر: طه حسين، مع المتنبي، دار المعارف بمصر، ص9-34.

²¹ ينظر: عبد الإله بلقزيز، نقد التراث، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2016، ص85.

من وجهة النظر الغربية إزاء الدين متكاً للقول بالخصومة الجوهرية الأزلية بين العلم والدين، داعياً إلى فصل الدين عن الحياة²². وكانت هذه هي قمة التعسف وإعمال الهوى الإيديولوجي في استشكال التراث.

لقد اتصف دعاة الحداثة بكثرة إقبالهم على الثقافة الأوروبية، وشدة إهمالهم للثقافة الإسلامية، فكان ذلك من أسباب عدائهم للتراث وتكرهم للإسلام. وقد كان أحدهم—وهو زكي نجيب محمود— من الحرص على الحقيقة، وشجاعة الاعتراف بها، حيث تحول عن هذا التيار وشهد على موقفه السابق بالضلال، فقال: "بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة إلا إذا بترنا التراث بترا، وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علماً وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم، بل إنني تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون على ظن مني أنئذ أن الحضارة وحدة لا تتجزأ. فإما أن نقبلها من أصحابها— وأصحابها اليوم هم أبناء أوربا وأمريكا بلا نزاع— وإما أن نرفضها، وليس في الأمر خيار بحيث ننتقي جانباً ونترك جانباً كما دعا إلى ذلك الداعون إلى اعتدال؛ بدأت بتعصب شديد لهذه الإجابة السهلة، وربما كان دافعي الخبيء إليها هو إمامي بشيء من ثقافة أوربا وأمريكا وجهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تاماً، والناس— كما قيل بحق— أعداء ما جهلوا"⁽²³⁾.

وهذا اعتراف ثمين يعتمد وثيقة في إثبات أحد العوامل الرئيسية في اتخاذ تيار الحداثة العربي موقفاً سلبياً من التراث، حال دون تقديم رؤية موضوعية يمكن أن يُبنى عليها استثمار راشد لمصادر القوة والخصوبة والرشد في مناهجه ومضامينه.

²² ينظر: طه حسين، من بعيد، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1963م.

⁽²³⁾ زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، دار الشروق، بيروت- القاهرة، ط3، 1974، ص 12-